

الكتاب الخامس

شباب المسيحية

من ٤ ق. م إلى ٣٢٥ م

obeikandi.com

ثبت مسلسل

كل التواريخ ما عدا أولها بعد الميلاد ، وكل ما كان منها
قبل عام ١٥٠ مشكوك فيه

-
٤. ق. م : مولد المسيح .
٦٠. م : صلبه ، هداية بولس .
٤٥ - ٤٧ : بعثة بولس الأولى .
٥٠ - ٥٣ : بعثة بولس الثانية .
٥١ : بولس في أثينة .
٥٣ - ٥٧ : بعثة بولس الثالثة .
٥٨ - ٦٠ : فلкс يسجن بولس .
٦٤ : اضطهاد نيرون للمسيحيين .
موت بطرس وبولس .
٦٥ : ليتس أسقف رومة .
٧٧ : كليتس أسقف رومة .
٦٠ - ١٠٠ : الأنجيل الأربعة .
٨٩ : كلمنت الأول أسقف رومة .
٩٠ : رسائل يوحنا .
٩٨ : إواستس أسقف رومة .
١٠٦ : ألكسندر الأول أسقف رومة .
١١٦ : أكسيتس الأول أسقف رومة .
١٢٦ : تلسفورس أسقف رومة .
١٣٧ : هيچينس أسقف رومة .
١٤١ : بيوس الأول أسقف رومة .
١٥٠ : معذرة چستين الأول .
١٥٦ : أنتسيتس أسقف رومة .
١٦٦ : استشهاد ديوليكارب .
١٧٥ : إليوثيريوس أسقف رومة .
١٧٧ : استشهاد ليون .
١٧٨ : أرينايس أسقف ليون .
١٩٠ : فكتور الأول أسقف رومة .

ق . م

- ١٩٣ : پرتناكس و دديوس چليانس ، إمبراطوران .
- ١٩٣ - ٢١١ : سبتيوس سفيرس ، إمبراطور .
- ١٩٤ : متانس ؛ كلمنت الإسكندري .
- ٢٠٠ : ليبر أبولوچتاكس لرتليان .
- ٢٠٢ : زفرينس أسقف رومة .
- ٢٠٣ : قوس سبتيوس سفيرس ؛ أورجن .
- ٢٠٥ - ٢٧٠ : بلوتينس .
- ٢١١ - ٢١٧ : كركلا .
- ٢١٢ : كركلا يوسع نطاق المواطنة .
- ٢١٥ : حمامات كركلا ، ماني .
- ٢١٨ : كلستس الأول ، أسقف رومة .
- ٢١٨ - ٢٢٢ : إلاجابالس ، إمبراطور .
- ٢٢٢ : إريان الأول : أسقف رومة .
- ٢٢٢ - ٢٣٥ : الكسندر سفيرس ، إمبراطور .
- ٢٢٨ : اغتيال أليان .
- ٢٣٥ - ٢٥٨ : مكسمينس ، إمبراطور .
- ٢٣٦ : فايان ، أسقف رومة .
- ٢٣٨ - ٢٤٤ : جورديانس الأول ، والثاني والثالث ، أباطرة .
- ٢٤٠ - ٢٧٢ : شابور الأول ، ملك الفرس .
- ٢٤٤ - ٢٤٩ : فليب العربي ، إمبراطور .
- ٢٤٨ : سيريان ، أسقف قرطاجنة ، ضد سلم لأورجن .
- ٢٤٩ - ٢٥١ : ديسيوس ، إمبراطور ؛ ديوفانتس العالم الرياضي .
- ٢٥١ : كورنليوس ، أسقف رومة .
- ٢٥١ - ٢٥٣ : جالس ، إمبراطور .
- ٢٥٣ - ٢٦٠ : فلريانس ، إمبراطور .
- ٢٥٣ - ٢٦٨ : جليينس ، إمبراطور .
- ٢٥٤ : المركانيون يغيرون على شمال إيطاليا .
- ٢٥٥ : شابور يغزو سوريا .
- ٢٥٧ : مرسوم فلريان ضد المسيحية .
- ٢٥٩ : القوط يجتاحون آسية الصغرى .
- ٢٦٠ : مرسوم التسامح الأول
- ٢٦٠ - ٢٦٦ : أدناس في تدمر .
- ٢٦٦ - ٢٧٣ : زفوبيا ولنچينس في تدمر .
- ٢٦٨ - ٢٧٠ : كلوديوس الثاني ، إمبراطور .

ق . م

- ٢٧٠-٢٧٥ : أورليان ، إمبراطور .
٢٧١ : البرابرة يغيرون على إيطاليا .
٢٧٥-٢٧٦ : تاركش ، إمبراطور .
٢٧٦-٢٨٢ : پروبس ، إمبراطور .
٢٨٢-٢٨٣ : كاروس ، كرميس ، نمرانس ، أباطرة .
٢٨٤-٣٠٥ : دقلديانوس ، إمبراطور .
٢٨٦-٣٠٥ : مكسميانس مع أغسطس .
٢٩٢ : جلريوس ، وقسطنطيوس ، قيصران .
٢٩٥ : حامات ، دقلديانوس .
٢٩٦ : مرسيس ، أسقف رومة .
٣٠١ : ثمن مرسوم دقلديانوس .
٣٠٣-٣١١ : اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين .
٣٠٦ : قسطنطين يصبح قيصراً .
٣٠٧ : مكنتيوس ومسكيان كلاهما أغسطس ؛ باسلفا مكستتيوس .
٣٠٧-٣٠٩ : مارسلس الأول ، أسقف رومة .
٣٠٧-٣١٠ : يوسبيوس ، أسقف رومة .
٣١٢ : واقعة جسر ملثي ، مرسوم ميلان .
٣١٥ : تاريخ الكنيسة ليوسبيوس .
٣١٣-٣٢٣ : قسطنطين وليسينوس يقتسمان الإمبراطورية .
٣١٤ : مجلس أريلس .
٣١٤-٣٣٦ : سلفستر الأول ، أسقف رومة .
٣١٥ : قوس قسطنطين .
٣٢٣ : هزيمة لوسنيوس عند أدرنه .
٣٢٤-٣٣٧ : قسطنطين إمبراطور وحده .
٣٢٥ : مجلس نيقية .
٣٢٦ : قسطنطين يقتل ابنه وابن أخيه وزوجته .
٣٣٠ : القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية .
٣٣٧ : موت قسطنطين .

الباب السادس والعشرون

عيسى أو يسوع

٤ ق . م - ٣٠ م

الفصل الأول

المراجع

هل وجد المسيح حقاً ؟ أو أن قصة حياة مؤسس المسيحية وثمره
أحزان البشرية ، وخيالاتها ، وآمالها - أسطورة من الأساطير شبيهة
بخرافات كرشنا ، وأوزيريس ، وأثيس ، وأدنيس ، وديونيشس ،
ومثراس ؟ لقد كان بولنجبرك والملثفون حوله ، وهم جماعة ارتاع لأفكارهم
فلتير نفسه ، يقولون في مجالسهم الخاصة إن المسيح قد لا يكون له
وجود على الإطلاق ، وجهر فلني Volney بهذا الشك نفسه في كتابه
مراثي الجمهورية الذي نشره في عام ١٧٩١ ؛ ولما التقى نابليون في عام
١٨٠٨ بفييلاند Wieland العالم الألماني لم يسأله القائد الفاتح سؤالا تافها في
السياسة أو الحرب ، بل سأله هل يؤمن بتاريخية المسيح ؟

ولقد كان من أعظم ميادين نشاط العقل الإنساني في العصر الحديث وأبعدها
أثراً ميدان « النقد الأعلى » للكتاب المقدس - التهجم الشديد على صحته وصدق
روايته ، تقابله جهود قوية لإثبات صحة الأسس التاريخية للدين المسيحي ؛ وربما
أدت هذه البحوث على مر الأيام إلى ثورة في التفكير لا تقل شأنًا عن الثورة

التي أحدثتها المسيحية نفسها . وقد دارت رحى أولى المعارك في هذه الحرب التي دامت مائتي عام كاملة في صمت وسكون ، وكان الذي أدارها هو هرمان ريمارس Hermann Reimarus أستاذ اللغات الشرقية في جامعة همبرج ، فقد ترك بعد وفاته في عام ١٧٦٨ مخطوطاً عن حياة المسيح يشتمل على ١٤٠٠ صفحة حرص على ألا ينشره في أثناء حياته . وبعد ست سنين من ذلك الوقت نشر جتهولد لسنج Gotthold Lessing أجزاء من هذا المخطوط ، رغم معارضة أصدقائه في هذا النشر ، وسماه هتامات ولفضتل Wolfenbuttel Fragments . ويقول ريمارس إن يسوع لا يمكن أن يعد مؤسس المسيحية أو أن يفهم هذا الفهم ، بل يجب أن يفهم على أنه الشخصية النهائية الرئيسية في جماعة المتصوفة اليهود القائلين بالبعث والحساب ، ومعنى هذا أن المسيح لم يفكر في إيجاد دين جديد ، بل كان يفكر في تهيئة الناس لاستقبال دمار العالم المرتقب ، وليوم الحشر الذي يحاسب فيه الله الأرواح على ما قدمت من خير أو شر . وفي عام ١٧٩٦ أشار هرردر إلى ما بين المسيح متى ، ومرقس ، ولوقا ومسيح لإنجيل يوحنا من فوارق لا يمكن التوفيق بينها ، وفي عام ١٨٢٨ ألخص هنريخ پولس Heinrich Paulus حياة المسيح في ١١٩٢ صفحة ، وعرض تفسيراً عقلياً للمعجزات : أي أنه آمن بوقوعها ، ولكنه عزاها إلى علل وقوى طبيعية . ثم جاء دافد استروس David Strauss (١٨٣٥ - ١٨٣٦) في كتابه عن حياة المسيح - وهو كتاب عظيم الأثر في التاريخ - فرفض ما حاوله پولس من توفيق بين المعجزات والعلل الطبيعية ، وقال إن ما في الأناجيل من خوارق الطبيعة يجب أن يعد من الأساطير الخرافية ، وإن حياة المسيح الحقيقية يجب أن تعاد كتابتها بعد أن تحذف منها هذه العناصر أيا كانت صورها . رقد أثارث مجلدات استروس الضخمة عاصفة قوية في التفكير الألماني دامت جيلا من الزمان . وفي نفس العام الذي ظهر فيه كتاب استروس

هاجم فردناند كرستيان بور Ferdinand Christian Bour رسائل پولس وقال إنها كلها ممدوسة عليه عدا رسائله إلى أهل غلاطية ، وكورنثوس ، (كورنثة) ورومية (رومة) . وفي عام ١٨٤٠ بدأ برونو بور Bruno Bauer سلسلة من الكتب الجدلية الحماسية يبغي بها أن يثبت أن يسوع لا يعدو أن يكون أسطورة من الأساطير ، أو تجسيدا لطقس من الطقوس نشأ في القرن الثاني من مزيج من الأديان اليهودية ، واليونانية ، والرومانية . وفي عام ١٨٦٣ أخرج إيرنست رينان Ernest Renan **حياة يسوع** الذي روع ملايين الناس باعتماده فيه على العقل وسحر لب الملايين بنثره الجزل . وقد جمع رينان في هذا الكتاب نتائج النقد الألماني ، وعرض مشكلة الأنجيل على العالم المثقف كله . وبلغت المدرسة الفلسفية صاحبة البحوث الدينية ذروتها في أواخر القرن التاسع عشر على يد الأب لوازى Loisy الذي حلل نصوص العهد الجديد تحليلا بلغ من الصرامة حداً اضطرت معه الكنيسة الكاثوليكية إلى إصدار قرار بجرمانه هو وغيره من « المحدثين » . وفي هذه الأثناء وصلت المدرسة الهولندية مدرسة بيرسن Pierson ونابر Naber ، وماتثاس Matthas بالحركة إلى أبعد حدودها إذ أنكرت بعد بحوث مضمينة حقيقة المسيح التاريخية . وفي ألمانيا عرض آرثر دروز Arthur Drews هذه النتيجة السالبة عرضاً واضحاً محدداً (١٩٠٦) ؛ وفي إنجلترا أدلى و . ب . أسمث W.B. Smith و ج . م . ربرتن J. M. Robertson . بحجج من هذا النوع أنكروا فيها وجود المسيح . وهكذا بدأ أن الجدل الذي دام مائتي عام سينتهي إلى إفناء شخصية المسيح إفناء تاماً . وبعد فاهي الأدلة التي تثبت وجود المسيح ؟ إن أقدم إشارة غير مسيحية إليه هي التي وردت في كتاب قدم اليهود ليوسفوس (٩٣ م) :

« وفي ذلك الوقت كان يعيش يسوع ، وهو رجل من رجال الدين ، إذله

جاز أن نسميه رجلاً ، لأنه كان يأتي بأعمال عجيبة ، ويعلم الناس ، ويتلقى الحقيقة وهو مغتبط . وقد اتبعه كثيرون من اليهود وكثيرون من اليونان . لقد كان هو المسيح ؟

قد تنطوى هذه السطور العجيبة على أصل صادق صحيح ؛ ولكن هذا الثناء العظيم الذى يثنى به على المسيح يهودى يريد به الزلزال للرومان أو اليهود — وكان كلاهما يناصبان المسيحية العداء فى ذلك الوقت — ، نقول إن هذا الثناء لما يبعث الريبة فى هذه الفقرة ، ولذلك يرفضها علماء المسيحية ، ولا يكادون يشكون فى أنها ممدسوسة على يوسفوس^(٣) . وفى التامود إشارات إلى يسوع الناصرى . ولكنها من عهد متأخر جداً يجعلها مجرد ترديد لأصداء الأفكار المسيحية^(٤) . وأقدم ما لدينا من إشارات إلى المسيح فى أدب الوثنيين ما ورد فى خطاب كتبه بلنى الأصغر (حوالى ١١٠)^(٥) ، يستشير فيه تراچان عما يعامل به المسيحيين(*) وبعد خمس سنين من ذلك الوقت وصف تاسيتس^(٦) اضطهاد نيرون للكركستيانى Christiani فى رومة ويقول إنهم فى ذلك الوقت كان لهم أتباع فى جميع أنحاء أوربا . وهذه الفقرة شبيهة بكتابات تاسيتس فى أسلوبه ، وقوته ، وتحيزه شهاً لم يرتب معه أحد من الباحثين إلا درور وحده فى صدورهما من هذا الكاتب^(٧) . ويذكر سوتونيوس (حوالى ١٢٥) خبر هذا الاضطهاد نفسه^(٨) ، كما يذكر نقي كلوديوس (حوالى ٥٢) « اليهود الذين أثاروا اضطرابات عامة بتحريض المسيح impulsore Chresto »^(٩) . وتتفق هذه الفقرة أشد الاتفاق مع ما ورد فى أصحاب أعمال الرسل من أن كلوديوس أصدر مرسوماً أوجب فيه على « اليهود أن يخرجوا من رومة »^(١٠) . وهذه الإشارات كلها تثبت وجود المسيحيين لا المسيح نفسه ؛ ولكننا إذا لم نسلم بوجود المسيح فلا مناص لنا من أن نأخذ بالفرض

(*) نقلنا هذه الفقرة بعد ؟ ونجد نص الخطاب فى الجزء الاول من كتابنا « أشهر

الرسائل العالمية » . (المترجم)

الضعيف جداً وهو أن شخصية يسوع قد اخترعت اختراعاً في جيل واحد ؛ ولا بد لنا من أن نفترض فوق ذلك أن الجالية المسيحية وجدت رومة قبل عام ٥٢ بوضع سنين ، وإلا لما كانت خليقة أن يصدر بشأنها مرسوم إمبراطورى . ويقول ثالثس Thallus وهو كاتب وثى عاش في منتصف ذلك القرن الأول في هتامه من كتاب احتفظ لنا به يوليوس أفركانس^(١١) إن الظلمة العجيبة التى يقال إنها حدثت وقت موت المسيح ، كانت ظاهرة طبيعية محضة ، ولم تكن أكثر من مصادفة عادية . أما وجود المسيح فهو عند هذا الكاتب قضية مسلم بها مفروغ من صحتها .

وقصارى القول أن تكران ذلك الوجود لم يخطر على ما يظهر لأشد المخالفين لليهودية أو لليهود المعارضين للمسيحية الناشئة في ذلك الوقت .

أما الأدلة المسيحية على وجود المسيح فتبدأ بالرسائل المعزوة إلى القديس بولس . وبعض هذه الرسائل لا يعرف كاتبها معرفة أكيدة ، ومنها عدة رسائل - تؤرخ بعام ٦٤ م ولكنها كتبت في الحقيقة بعد ذلك التاريخ - لا يكاد يختلف الباحثون في أنها في جوهرها من كتابات بولس . ولم يشاك أحد قط في وجود بولس نفسه أو في لقاءه الكثير لبطرس ، ويعقوب ، ويوحنا ؛ ويعترف بولس بأن هؤلاء الرجال قد عرفوا المسيح في أثناء حياته ويحسداهم على هذه المعرفة^(١٢) . وكثيراً ما تشير الرسائل المعترف بنسبتها إليه إلى العشاء الأخير^(١٣) وإلى حادث الصلب^(١٤) .

هذا ما كان من أمر المسيح نفسه ، أما الانجيل فليس أمرها بهذه السهولة . ذلك أن الأربعة الانجيل التى وصلت إلينا هى البقية الباقية من عدد أكبر منها كثيراً ، كانت في وقت ما منتشرة بين المسيحيين في القرنين الأول والثاني . واللفظ الدال على الإنجيل "gospel" (وهو في اللغة الإنجليزية القديمة godspel أى أخبار طيبة) - ترجمة للفظ اليونانى euangelion - الذى يبدأ به إنجيل مرقس

ومعناه « أخبار سارة » — هي أن المسيح قد جاء ، وأن ملكوت الله قريبة المنال ، وأناجيل متى ، ومرقس ، ولوقا ، يمكن الإحاطة بها بنظرة واحدة : ذلك بأن محتوياتها وحوادثها يمكن ترتيبها في أعمدة متوازية « والنظر إليها كلها مجتمعة » ؛ وقد كتبت كلها باللغة اليونانية الدارجة ، ولم تكن نماذج طيبة في النحو أو في الصقل الأدبي . بيد أن ما في أسلوبها السهل من قوة وإيصال المعاني عن أقرب طريق ، وما في تشبهاتها والصور التي ترسمها من وضوح ، وما في الإحساسات التي تصورها من عمق ، وما في القصص التي ترويها من روعة ، كل هذا يكسبها حتى في صورتها الأصلية الفجة جمالا فذاً ، زاده قوة عند العالم الإنجليزى الترجمة العظيمة البعيدة كل البعد عن الدقة ، والتي وضعت للملك جيمس .

وترجع أقدم النسخ التي لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث . أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت بين عامى ٦٠ ، ١٢٠ م ، ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان لأخطاء في النقل ، ولعلها تعرضت أيضاً لتحريف مقصود يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التي ينتمى إليها الناسخ أو أغراضها . والكتّاب الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول الميلادى لا ينقلون قط شيئاً عن العهد الجديد ، بل كل ما ينقلوه مأخوذ من العهد القديم ، ولسنا نجد إشارة لإنجيل مسيحى قبل عام ١٥٠ إلا في كتابات پپياس Papias الذى كتب فى عام ١٣٥ إذ يقول إن « يوحنا الأكبر » وهو شخصية لم يستطع الاستدلال على صاحبها — قال إن مرقس ألف لإنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس^(١٥) .

ويضيف پپياس إلى هذا قوله : « وأعاد متى كتابة الكلمات بالعبرية » — ويبدو أن هذا الإنجيل مجموعة آرامية من أقوال المسيح . والراجح أن بولس كانت لديه وثيقة من هذا النوع ، وذلك لأنه ينقل أحياناً كلمات يسوع

بنصها(*) وإن كان لا يذكر الأناجيل قط . ويتفق الناقدون الثقاة بوجه عام على أسبقية إنجيل مرقس في الزمن على سائر الأناجيل ، وفي تحديد تاريخه بين عامى ٦٥ و ٧٠ م . وإذ كان هذا الإنجيل يكرر المسألة الواحدة أحياناً في عدة صور^(١٦) فإن الكثيرين من الباحثين يعتقدون أنه يعتمد على **الكلمات** السالفة الذكر وعلى قصة أخرى قديمة العهد قد تكون هي الصورة الأولى لإنجيل مرقس نفسه . ويبدو أن لإنجيل مرقس كان منتشرأ أثناء حياة بعض الرسل أو حياة الرعيل الأول من أتباعهم ومريديهم . ولهذا فإنه يبدو من غير المحتمل أنه كان يختلف اختلافاً جوهرياً عما كان لديهم من أقوال وعن تفسير المسيح لهذه الأقوال^(١٧) . ومن حقنا إذن أن نحكم كما حكم شوتنر Schwetzer ذلك العالم النابه الحكيم بأن لإنجيل مرقس فى جوهره « تاريخ صحيح »^(١٨) .

وتقول الرواية المأخوذ بها إن لإنجيل متى أقدم الأناجيل كلها ، ويعتقد إيرنيوس Irenaeus أنه كتب فى الأصل باللغة « العبرية » — أى الآرامية ، ولكنه لم يصل إلينا إلا باللغة اليونانية . وإذ كان يبدو لنا إنه فى هذه الصورة الأخيرة يردد أقوال لإنجيل مرقس ، وأنه ينقل فى أكبر الظن من أقوال يسوع نفسها ، فإن النقاد يميلون إلى القول بأنه من تأليف أحد أتباع متى ، وليس من أقوال « العشار » نفسه . وحتى أكثر العلماء يرجعون به إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامى ٧٥ — ٩٠ م^(٢٠) . وإذ كان الغرض الذى يبتغيه متى هو هداية اليهود فإنه يعتمد أكثر من غيره من المبشرين على المعجزات التى تعزى إلى المسيح ، ويحرص حرصاً يدعو إلى الريبة على أن يثبت أن كثيراً من نبوءات

(*) كشف جرنفل Grenfell وهنت Hunt فى خرائب إحدى المدن القديمة فى مصر فى عامى ١٨٩٧ ، ١٩٠٣ من عشرين قطعة من « الكلمات » تتفق إلى حد ما مع فقرات مماثلة لها فى الأناجيل . ولا ترجع هذه البرديات إلى ما قبل القرن الثالث ولكنها قد تكون نسخاً من مخطوطات أقدم منها .

العهد القديم قد تحققت على يدي المسيح . بيد أنه رغم هذا أشد الأناجيل الأربعة تأثيراً في النفس . وإثارة للعاطفة . ولا يسعنا إلا أن نعهده بين روائع الآداب العالمية ، وإن لم يدرك ذلك كاتبه القديم .

والإنجيل حسب نص القديس لوقا ، وهو النص الذي يعزى عادة إلى العقد الأخير من القرن الأول ، يعلن أنه يرغب في تنسيق الروايات السابقة عن المسيح ، والتوفيق بينها ، وأنه يهدف إلى هداية الكفرة لا اليهود ، وأكبر الظن أن لوقا نفسه كان من غير اليهود ، وأزه كان صديق بولس ، ومؤلف سفر أعمال الرسل (٢١) . وهو يقتبس كثيراً من كتابات مرقس كما يقتبس منها متى (٢٢) . فإنك لتجد في إنجيل متى ستمائة آية من الستمائة والإحدى والستين التي يشتمل عليها النص المعتمد لإنجيل مرقس ، وتجد منها ثلثمائة وخمسين في إنجيل لوقا تكاد أن تكون هي بنصها (٢٣) . وفي إنجيل متى كثير من الفقرات التي توجد في لوقا ولا توجد في إنجيل مرقس ، وهنا أيضاً تكاد تكون هي بنصها ، ويبدو أن لوقا أخذ هذه عن متى ، أو أن لوقا ومتى أخذوها عن أصل مشترك ، لم نعر عليه بعد . ويصقل لوقا هذه المقتبسات الصريحة بمهارة أدبية تحمل لينان على الظن بأن هذا الإنجيل أجمل ما ألف من الكتب .

ولا يدعى الإنجيل الرابع أنه ترجمة ليسوع ، بل هو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية بوصفه كلمة الله ، وخالق العالم ، ومنقذ البشرية . وهو يناقض الأناجيل الأخرى في كثير من التفاصيل وفي الصورة العامة التي يرسمها للمسيح (٢٥) . وإن ما يصطبغ به الكتاب من نزعة قريبة من نزعة القائلين بأن الخلاص لا يكون بالإيمان بل بالمعرفة ، وما فيه من تأكيد للأراء الميتافيزيقية ، قد جعلها الكثيرين من الباحثين في الدين المسيحي يشكون في صدق القول بأن واضعه هو الرسول يوحنا (٢٦) . بيد أن التجارب توحى إلينا ألا نعجل في تكذيب الروايات القديمة ؛ ذلك بأن أسلافنا لم

يكونوا كلهم بلهاء . ويتنزع الدراسات الحديثة إلى تحديد تاريخ الإنجيل الرابع بأواخر القرن الأول . والراجح أن الروايات الماثورة كانت صادقة إذ تعزو إلى المؤلف نفسه « رسائل يوحنا » ، ذلك بأنها تعرض الأفكار نفسها بالأسلوب نفسه .

وملاك القول أن ثمة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر ، وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكا في صحتها ، وكثيراً من القصص الباعثة على الريبة والشبهة بما يروى عن آلهة الوثنيين ، وكثيراً من الحوادث التي يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة في العهد القديم ، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقدير أساس تاريخي لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس متأخر من طقوسها . لقد كان المبشرون بالإنجيل يرون كما يرى شيشرون وسالست ، وتاستس أن التاريخ وسيلة لنشر المبادئ الخلقية السامية ، ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تتعرض له ذاكرة الأميين من ضعف وعيوب ، ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو « تصحيح » .

فلذا سلمنا بهذا كله بقى الشيء الكثير . إن ما في الأناجيل من تناقض لا يتعدى التفاصيل الجزئية إلى الحقائق العامة ، وإن الأناجيل الثلاثة الأولى لتتفق اتفاقاً عجبياً ، وتعرض في مجموعها صورة منسقة للمسيح . ولقد دفعت حماسة الكشف كبار الناقدين إلى أن يقيسوا صحة أقوال العهد الجديد بمقاييس لو طبقت على مئات من العظماء الأقدمين أمثال حمورابي ، وداود ، وسقراط - لزالوا كلهم من عالم الحقائق وهووا إلى عالم الخرافات(*) . وإن المبشرين بالإنجيل ، رغم ما يتصفون به من تحيز وميل مع الهوى ومن الأخذ بأفكار دينية سابقة ، ليسجلون كثيراً من الحوادث التي يعتمد المخترعون الملفقون إلى إخفاؤها - كتنافس الرسل على المنازل العليا في مراكب الله ، وفرارهم بعد القبض على

(*) يقول أحد كبار العلماء اليهود قالة لعلها أقوى ما ينبغي : « لو كانت لنا في تاريخ الإسكندر أو قيصر مصادر كالتى نجدها في الأناجيل لما خالطنا أقل الشك في أمرهما » - ج . - كلوزنر J. Klausner في كتابه « من يسوع إلى بولس » ص ٢٦٠ .

يسوع ، وإنكار بطرس ، وعجز المسيح عن إتيان المعجزات في الجليل ، وإشارة بعض من سمعوه إلى ما عسى أن يكون مصاباً به من الجنون ، وتشكيكه الأول في رسالته ، واعترافه بأنه يجهل أمر المستقبل ، وما كان يمر به من لحظات يمتلئ قلبه فيها حقداً على أعدائه ، وصبيحة اليأس التي رفع بها عقيرته وهو على الصليب ؛ إن من يطلع على هذه المناظر لا يشك قط في أن وراءها شخصية تاريخية حقة . ولو أن عدداً قليلاً من الرجال السذج قد اخترعوا في مدى جيل واحد هذه الشخصية الجلداة ، وهذه المبادئ الأخلاقية السامية ، وهذه النظرية الأخوية الملهمة ، لكان عملهم هذا معجزة أبعد عن المعقول من أية معجزة تسجلها الأناجيل . وإن الخطوط الرئيسية في سيرة المسيح ، وأخلاقه ، وتعاليمه لتبقى بعد قرنين من النقد الشديد واضحة معقولة ؛ لتكون أروع ظاهرة في تاريخ الغربيين وأعظمها فتنة للألباب :

الفصل الثاني

نشأة عيسى

يحدد متى ولوقا ميلاد المسيح في « الأيام التي كان فيها هيرودس ملكا على بلاد اليهود » (٢٧) — أى قبل العام الثالث ق . م . على أن لوقا يقول عن يسوع إنه كان « حوالى الثلاثين من العمر » حين عمده يوحنا في السنة الخامسة عشرة من حكم تيبيريوس (١٢٧) ، أى في عام ٢٨ — ٢٩ م « وهذا يجعل ميلاد المسيح في عام ٢ — ١ ق . م . ويضيف لوقا إلى هذا قوله : « وفي تلك الأيام صدر مرسوم من قيصر أغسطس يقضى بأن تفرض ضريبة على العالم كله . . . حين كان كويرينيوس Quirinius والياً على سوريا » . والمعروف أن كويرينيوس كان حاكماً لسوريا بين عامي ٦ — ١٢ م ؛ ويذكر يوسفوس أنه أجرى إحصاء في بلاد اليهود ، ولكنه يقول إن هذا الإحصاء كان في عام ٦ — ٧ م (٢٨) ، ولستأ نجد ذكراً لهذا الإحصاء إلا هذه الإشارة . ويذكر ترتليان (٢٩) إحصاء لبلاد اليهود قام به سترنينس حاكم سوريا في عام ٨ — ٧ ق . م ، فإذا كان هذا هو الإحصاء الذي يشير إليه لوقا فإن ميلاد المسيح يجب أن يؤرخ قبل عام ٦ ق . م . ولستأ نعرف اليوم الذي ولد فيه بالتحديد ، وينقل لنا كلمنت الإسكندري (حوالى عام ١٠٠ م) آراء مختلفة في هذا الموضوع كانت منتشرة في أيامه ، فيقول إن بعض المؤرخين يحدده باليوم التاسع عشر من إبريل وبعضهم بالعاشر من مايو ، وإنه هو يحدده بالسابع عشر من نوفمبر من العام الثالث قبل الميلاد — وكان المسيحيون الشرقيون يحتفلون بمولد المسيح في اليوم السادس من شهر يناير منذ القرن الثاني بعد الميلاد . وفي عام ٣٥٤ احتفلت بعض الكنائس الغربية ومنها كنيسة رومة بذكرى مولد المسيح في اليوم الخامس والعشرين من

نوفمبر ، وكان هذا التاريخ قد عد خطأ يوم الانقلاب الشتائي الذي تبدأ الأيام بعده تطول ؛ وكان قبل هذا يحتفل فيه بعيد مثراس ، أى مولد الشمس التى لا تقهر . واستمسكت الكنائس الشرقية وقتاً باليوم السادس من يناير ، واتهمت أخواتها الغربية بالوثنية وبعبادة الشمس ، ولكن لم يكدهم يختم القرن الرابع حتى اتخذ اليوم الخامس والعشرون من ديسمبر عيداً للميلاد فى الشرق أيضاً (٣٠) (*) :

ويقول متى ولوقا إن مولد المسيح كان فى بيت لحم ، القائمة على بعد خمسة أميال جنوبى أورشليم ، ثم يقولان إن أسرته انتقلت منها إلى الناصرة فى الجليل ، أما مرقس فلا يذكر بيت لحم . ولا يذكر المسيح إلا باسم « يسوع » الناصرى (**) . وقد سمي بالاسم العادى المألوف « يسوع » Yeshu'a ومعناه معين يهوه ؛ وحرفه اليونان إلى Iesous ، والرومان إلى Iesus . ويبدو أنه كان ينتسب إلى أسرة كبيرة ، وشاهد ذلك أن جيرانه أدهشهم تعاليمه القوية فأخذوا يتساءلون قائلين : « ترى أنى له هذه الحكمة ، والقدرة على القيام بهذه العجائب ؟ أليس هو ابن النجار ؟ أليست أمه تسمى مارية Mary ، أليس أخوته هم يعقوب ، ويوسف ، وشمعون ويهوذا ؟ ألا تقوم أخواته هنا بيننا ؟ » (٣١) . ويحدثنا لوقا عن البشرى بأسلوب أدبى بليغ وينطق مريم - مارية - بتلك العبارات البليغة ، وهى من أروع القصائد التى يشتمل عليها العهد الجديد .

وتأتى شخصية مريم فى القصة بعد شخصية ولدها فى الروعة والتأثير : فهى تربيته وتحمل فى تربيته مسرات الأمومة المؤلمة ، وتفخر بعلمه فى أيام شبابه ،

(*) الذى نعرفه أن الكنائس الشرقية لا تزال تحتفل بعيد الميلاد فى اليوم السادس من يناير . (المترجم) .

(**) يظن الناقدون أن متى ولوقا قد اختارا بيت لحم ليقروا بذلك الادعاء بأن يسوع هو المسيح ، وأنه من نسل داود - كما تتطلب ذلك النبوة اليهودية . وذلك لأن أسرة داود كانت تقيم فى بيت لحم . ولكننا لا نجد ما يؤيد هذا الظن .

وتدهش فيما بعد من تعاليمه ومطالبه ، وترغب في أن تبعده عن جموع أتباعه المثيرين ، وأن تعيده إلى بيته الهادئ الشافي (لقد بحثت أنا وأبوك عنك محزونين)(*) ، وشاهدته وهو يصلب ، وعجزت عن إنقاذه ، ثم تلقت جسده بين ذراعيها ؛ فإذا لم يكن هذا تاريخاً فهو الأدب السامى ، لأن صلوات الآباء والأبناء تولف مسرحيات أعمق مما تولفه عاطفة الحب الجنسي . أما القصص التى أذاعها سلسس Celsus وغيره فيما بعد عن مريم وجندى روماني فالنقاد مجمعون على أنها « افتراء سخيف » (٣٢) . وأقل من هذا سخفاً تلك القصص التى تذكر أكثر ما تذكر فى الأسفار المحذوفة عن مولد المسيح فى كهف أو اصطبل ، وعن سجود الرعاة والمجوس له وعبادتهم لياه ، وعن مذبحه الأبرياء ، والفرار إلى مصر ، وإن كان العقل الناضج لا يرى ضيراً فى هذا الشعر الشعبي . ولا يذكر بولس ويوحنا شيئاً عن مولده من عذراء ، وأما متى ولوقا اللذان يذكرانه فيرجعان نسب يسوع إلى داود عن طريق يوسف ، بسلاسل أنساب متعارضة ؛ ويلوح أن الاعتقاد فى مولد المسيح من عذراء قد نشأ فى عصر متأخر عن الاعتقاد بأنه من نسل داود .

ولا يذكر أصحاب الأناجيل إلا القليل الذى لا يغنى عن شباب المسيح . فهم يقولون إنه اختتن حين بلغ الثامنة من عمره . ولقد كان يوسف نجاراً ، وإن ما كان فى ذلك العصر من توارث المهن ليوحى بأن يسوع قد احترف هذه الحرفة اللطيفة وقتاً ما ، وكان يعرف من ينتمى إلى حرفته من الصناع ، كما كان يعرف الملاك ، ورؤساء الخدم ، والمستأجرين ، والأرقاء وكل ما كان يحيط به فى الريف ؛ ويتردد ذكر هؤلاء جميعاً فى أحاديثه . وكان يحس بما فى الريف من جمال طبيعى ، وما للزهر من لون جميل ، وما يحيط بالأشجار المثمرة من هدوء وسكون . وليست قصة أسئلته للتلاميذ فى الهيكل مما لا يقبله العقل . وكان

(*) نقلنا هذه الأقوال وما بعدها كما هى وإن خالفت بعض عقائد المسلمين والمسيحيين .
(المترجم)

تأ عقل يقظ طلعة ، والشاب متى بلغ الثانية عشرة من عمره في بلاد لشرق أوشك أن يبلغ سن النضوج . لكنه لم يتعلم تعليماً منظماً ، وشاهد ذلك أن جبرته كانوا يتساءلون : « كيف يستطيع هذا الرجل أن يقرأ وهو لم يذهب قط إلى المدرسة ؟ » (٣٣) . وكان يتردد على المجمع الديني ، ويستمع إلى تلاوة الكتاب المقدس ، ويبدو عليه السرور حين يسمعه . وقد انطبعت في ذاكرته الأقوال الواردة في أسفار الأنبياء والمزامير بنوع خاص . وكان لها أثر كبير في تشكيله . واهله قرأ أيضاً سفرى دانيال وأخنوخ ، لأننا نجد في تعاليمه المتأخرة أثراً كبيراً من رؤى المسيح الموعود ، ويوم الحشر ، ومملكة السماء .

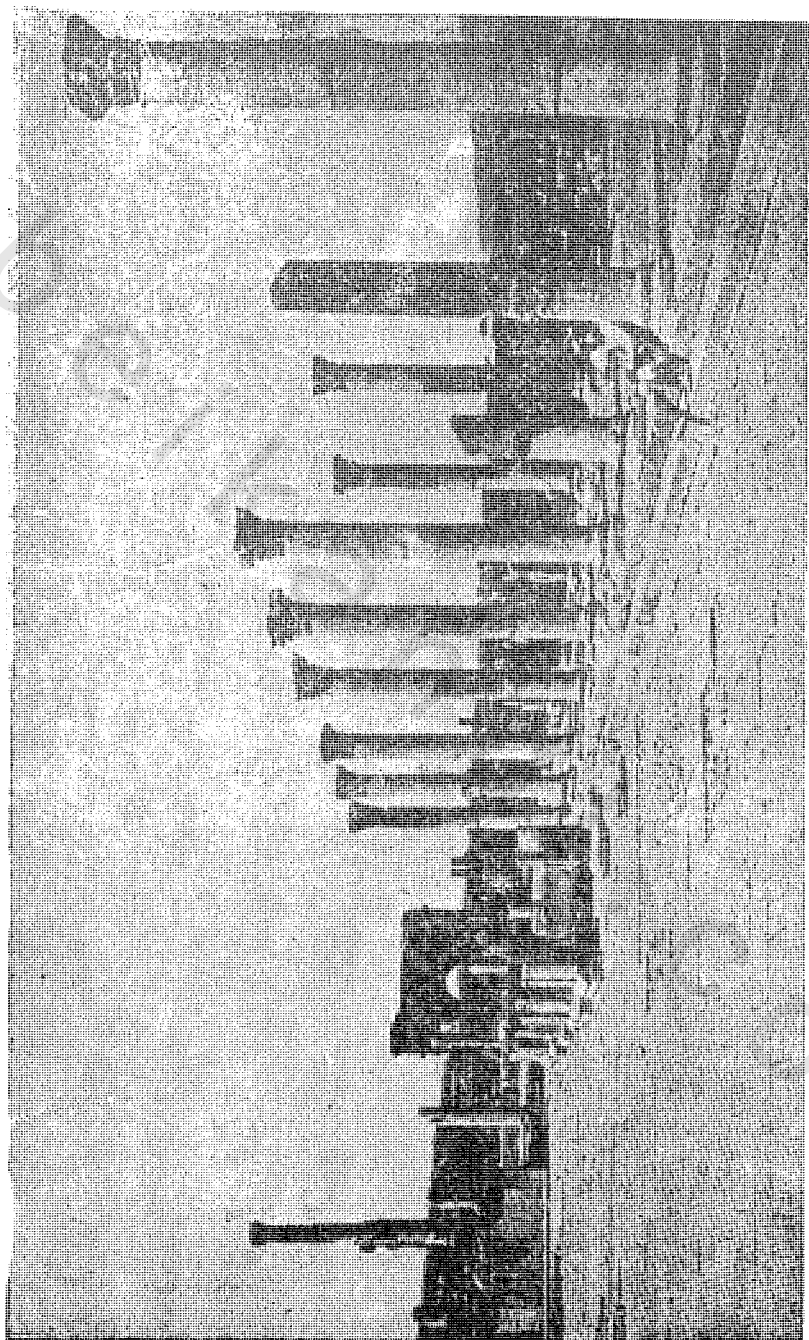
وكان الهواء الذى يتنفسه مشحوناً بالحماسة الدينية ، وكان آلاف من اليهود يفتظرون على أحر من الجمر مجيء منقذ لإسرائيل . وكان السحر والشياطين ، والملائكة ، وحلول الشياطين في أجسام الآدميين ، وإخراجها ، والمعجزات ، والنبوءات ، والاطلاع على الغيب ، والتنجيم ، كانت كل هذه عقائد مسلماً بها في كل مكان . ولعل قصة المحوسى كانت تسليماً لا بد منه لعقائد المنجمين في ذلك العصر (٣٤) ، وكان السحرة يطوفون بالمدن ؛ وما من شك في أن عيسى قد عرف شيئاً عن الأسينيين وعن حياة الزهد الشبيهة كل الشبه بحياة البوذيين (*) ، وذلك في خلال أسفار جميع الصالحين من يهود فلسطين إلى بيت المقدس في أثناء عيد الفصح . ولعله قد سمع أيضاً عن شيعة تدعى « الناصرة Mazaranes » كان المنتمون إليها يعيشون في بيريه في الناحية الأخرى من نهر الأردن ، وكانوا برفضون التعبد في الهيكل ، ويأبون التقييد بالناموس (٣٥) . ولكن الذى

(*) وكان أشوكا قد بعث بمشيرييه البوذيين حتى بلغوا مصر وقوريني غرباً (٢٣) ، وأكبر الظن إذن أنه بعثهم إلى بلاد الشرق الأدنى .

أثار حماسه الدينية هو عظات يوحنا ابن الیصابات قریبة مریم .

ویروی یوسفوس قصة یوحنا بشیء من التفصیل (٣٧) . فإذا قرأناها بدا لنا المعمدان شیخاً طاعناً فی السن ، أما الحقيقة فهي عکس هذا ، فهو فی الوقت الذی نتحدث عنه فی سن عیسی أو قریب منه ، ویصفه مرقس ومتی بأنه کان یرتدی ثوباً من الشعر ، ویعیش علی الجراد الجاف وعسل النحل ، ویقف بجوار نهر الأردن ، ویدعو الناس إلی التوبة . وکان یمثل الإسیئین فی الزهد ، ولكنه یخالفهم فی اعتقاده أن التعمید یکنی أن یرى مرة واحدة ؛ وقد یرى اسمه « المعمدان » مرادفاً للفظ الیونانی « إسیئین » أى الاستحمام (٣٨) ، وقد أضاف یوحنا إلی عقيدة التطهیر الرمزى تندیده الشدید بالنفاق ، وعدم التمسك بالأخلاق القویمة ، وطلبه إلی المذنبین أن یستعدوا إلی الدار الآخرة ، وإعلانه قرب حلول مملكة السماء (٣٩) ، وقوله إنه إذا تابت بلاد الیهود كلها وتطهرت من الخطیئة جاء المسیح وحلت مملكة السماء علی الفور .

ویقول لوقا إنه فی « السنة الخامسة عشرة من حکم تیبریوس » أو بعدها بقلیل جاء یسوع إلی نهر الأردن لیُعَمِّدَ علی یدیہ . وهذا القرار الذی اتخذه رجل « یقرب من سن الثلاثین » (٤٠) شاهد علی أن المسیح قد آمن بتعالیم یوحنا ؛ وأن تعالیمه هو لن تفرق فی جوهرها عن تلك التعالیم . أما أسالیبه ، وأخلاقه فكانت تختلف عن أمثالها عند یوحنا : فهو لم یعمد أحداً (٤١) ، ولم یعش فی البیداء ، بل عاش العالم . ولم ینقض علی هذا اللقاء بین عیسی ویوحنا إلا قلیل من الوقت حتی أمر هیرودس أنتپاس « صاحب المدن الأربع » فی الجلیل بسجن یوحنا . وتقول. الأناجیل إن سبب القبض علی یوحنا هو انتقاد هیرودس لأنه طلق زوجته ، وتزوج هیرودیاس وهی لاتزال زوجة لفلیپ أخیه غیر الشقیق . أما یوسفوس فیقول إن سبب القبض علیه هو خوف هیرودس أن



(شکل - ۱۱) خرابی تيجاد

يكون يوحنا يستر بستر الإصلاح الديني ليشر القلاقل السياسية في البلاد^(٤٢) .
ويروى مرقس^(٤٣) ومتى^(٤٤) في هذا المجال قصة سالوم ابنة هوردياس ،
التي فتنت هيرودس برقصها أمامه حتى عرض عليها أن يقدم لها أية مكافأة
تطلبها . ويقولان إنها طلبت إليه رأس يوحنا ، بتحريض من أمها ، وإن
الحاكم أجابها وهو كاره إلى طلبها . وليس في الأناجيل شيء عن حب
سالوم ليوحنا ، وليس في يوسفوس ما يشير إلى أنها كانت لها يد في موته .

الفصل الثالث

الرسالة

ولما سجن يوحنا أخذ عيسى يقوم بعمل المعمدان ويخطب في الناس مبشراً بملكوت الله^(٤٥) ، ويقول لوقا إنه « عاد إلى الجليل » ، وإنه « كان يعلم في مجامعهم »^(٤٦) . وليست لدينا صورة مطبوعة في أذهاننا عن ذلك الشاب المثالي ، وهو يقوم بدوره في قراءة الكتاب المقدس على المجتمعين .
الناصرة ، ويختار لهم فقرة من سفر إشعيا : « روح الرب عليّ لأن الرب مسحني لأبشر المساكين ، أرسلني لأعصب منكسري القلب ، لأنادي للمسبيين بالعتق ، وللمأسورين بالإطلاق »^(٤٧) وللعنى بالبصر ، وأرسل المنسحقين في الحرية^(*) ، ويضيف لوقا « وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه ، فابتدأ يقول لهم إنه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم » ؛ وكان الجميع يشهدون ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فيه^(٤٨) . ولما عرف أن يوحنا قد قتل وأن أتباعه كانوا يبحثون عن زعيم جديد تحمل يسوع العبء وما يستتبعه من خطر ، وارتد أولاً في حذر وحيلة إلى القرى الهادئة وصار يتجنب على الدوام الجدل السياسي ، ثم أصبح في كل يوم أعظم جرأة في إعلانه لإنجيل التوبة ، والإيمان ، والنجاة ، حتى ظن بعض أتباعه أنه هو يوحنا قام من بين الموتى^(٤٩) .

ولنا ليصعب علينا أن ننظر إليه نظرة موضوعية مجردة : وليس سبب هذه الصعوبة مقصوراً على أن كل ما نعرفه عنه منقول عن الذين كانوا يعبدونه ، بل إن من أكبر أسبابها أن تراثنا الأخلاق ومثلنا العليا وثيقا الصلة به ، تكونا

(*) هذا الجزء من إنجيل لوقا ٤ : ١٨ وإن كان المؤلف يضيفه إلى الآيات السابقة المنقولة عن سفر إشعيا . (المترجم)

على منواله ، ولهذا فإننا نحس بما يصيبنا من أذى إذا وجدنا عيباً في أخلاقه .
لقد بلغ شعوره الدينى من القوة حداً جعله يندد أشد التنديد بمن لا يشاركونه
في آرائه ، ويعفو عن كل الأغلاط إلا عدم الإيمان : وإن الإنسان ليجد في
الأناجيل فقرات قاسية مريبة لا توائم قط ما يقال لنا عن المسيح في مواضع
أخرى منها ؛ ويبدو أنه قبل دون بحث وتمحيص أقصى ما كان يؤمن به معاصروه
عن جهنم السرمدية التى يعذب فيها من لا يتوبون من الكفار والمذنبين بالنار التى
لا تنطفئ أبداً والديدان التى لا تشبع من نهش أجسامهم^(٥٠) . وهو يتول
دون أن يحتج عليه أحد إن رجلاً فقيراً في الجنة لم يسمح له بأن يترك نقطة
واحدة من الماء تسقط على لسان رجل غنى في الجحيم^(٥١) . وينصحننا بنبل
وشرف ألا نحكم حتى لا يحكم علينا ، ولكنه يلعن الناس والمدن التى لم تؤمن
برسالته ويلعن شجرة التين التى لم تكن تحمل ثمراً^(٥٢) . ولعله كان قاسياً
بعض القسوة على أمه^(٥٣) . وكان يتصف بحماسة النبي العبرانى المتزمت أكثر
من اتصافه بالهدوء الشامل الذى يمتاز به الحكماء اليونانى وكانت عقائده
القوية تملأ قلبه ؛ كما كان غضبه للحق بطمس من حين إلى حين معالم
إنسانيته العميقة ؛ ولكن أغلاطه كانت هى الثمن الذى أداه لذلك الإيمان
القوى الذى استطاع أن يحرك به العالم . أما فيما عدا هذا فقد كان أحب
الناس إلى القلوب . وليست لدينا صورة واضحة له ولم يترك لنا أتباعه
وصفاً له دقيقاً ، ولكن الذى لا شك فيه أنه كان وسيماً بعض الوسامة ، كما كان
ذا روح جذابة ، استطاع بفضلهما أن يجمع حوله كثيرات من النساء وكثيرين
من الرجال : وفي وسعنا أن نستدل من بعض العبارات المتفرقة^(٥٤) ، على أنه كان
يلبس ، كما كان يلبس أهل زمانه ، عباءة فوق جلباب ، وخفين في قدميه ،
ولعله كان يضع على رأسه غطاء ينزل على كتفيه ليقيه حر الشمس^(٥٥) . وكانت
كثيرات من النساء يجدن عنده شيئاً من العطف والحنان يبعث فيهن لإخلاصا
عامراً تفيض به قلوبهن ، وليس انفراداً يوجنا بذكر المرأة التى ضببت وهى تزنى

حجة على كذبها ، فليست هذه القصة مما يفيد يوحنا من الناحية الدينية ،
وهي فوق هذا مما يتفق كل الاتفاق مع أخلاق المسيح(*) . ولا يقلّ جلالاً
عن هذه القصة قصة أخرى ليس في طاقة أتباعه أن يخترعوها ، وهي قصة
العاهر التي أثرت في قلبها سرعة قبوله توبة المذنبين ، فخرت راحة بين
يديه ، ودهنت قدميه بالطيب الثمين ، وغسلتهما بدموعها ، وجففتهما
بشعر رأسها ، وقال عنها عيسى إن خطاياها قد غفرت لها « لأنها أحببت
كثيراً » (٥٧) . ويروى أن الأمهات كن يأتين إليه بأطفالهن ليمسهم بيديه ،
وأنه « احتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم » (٥٨) .

ولم يكن عيسى من النساك الزاهدين كما كان الأنبياء الإسماعيليون
والمعمدان . ويروى عنه أنه قدم كثيراً من الخمر في حفل للزواج ، وأنه
كان يعيش مع « العشارين والمذنبين » ، وأنه قبّل عاهراً ثابتة ضمن
أتباعه . ولم يكن يأنف من مسرات الحياة الساذجة ، وإن كان قد قسا
قسوة غير طبيعية على رجل كان يشتهي فتاة . وكان في بعض الأحيان يقبل
الدعوة إلى الولائم في بيوت الأغنياء ، بيد أنه كان في العادة يختلط
بالفقراء ، وإن كانوا من الأمحاريين Amhaarez أشبه الناس بالمنبوذين الذين
كان الفريسيون الصدوقيون يحتقرونهم ويتجنبونهم . وكان يدرك أن
الأغنياء لن يؤمنوا برسالته ، فكان لذلك يبني آماله على ما عساه يحدث
من انقلاب يدخل الفقراء الوضيعين الأعلى في ملكوت الله . ولم يكن
يشبه قيصر إلا في وقوفه إلى جانب الطبقات السفلى وفي اتصافه بالرحمة ،
أما فيما عدا هذا فما أكبر الفرق بين الرجلين في أخلاقهما ، ونظرتهما إلى
الحياة ، وما يهتمان به فيها . لقد كان قيصر يرجو أن يصلح الناس بتبديل

(*) يوحنا ٧ : ٥٢ وما بعدها . وقد وردت القصة أيضاً في نسخ خطية قديمة
من إنجيل مرقس ولوقا ، ولكنها حذفت من نصيما المتأخرين ، وليس سبب حذفها
خوف الناشئين من أنها قد تساعد على فساد الأخلاق .

تنظمهم وشرائعهم ؛ أما المسيح فكان يرغب في أن يكون تغيير طبائع الناس وسيلة لتبديل النظم والاستغناء عن كثير من الشرائع . وكان قيصر هو الآخر ممن يغضبون أحياناً ، ولكن انفعالاته كانت على الدوام تحت سيطرة بصيرته النفاذة ؛ أما عيسى فلم يكن أيضاً غير ذى بصيرة ، وكان يجيب عن أسئلة الفريسيين الماكرة بمهارة تكاد تضارع مهارة المحامين . ولكنها لم تكن مهارة خالية من الحكمة ، ولم يكن في وسع أحد أن يربكه ولو هدهد بالقتل . لكن قواه العقلية لم يكن منشؤها اتساع عقله أو كثرة معارفه ، بل كان منبعها نفاذ البصيرة ، وقوة الشعور ، ووحدة الغرض . ولم يكن يدعى العلم بكل شيء ، وكثيراً ما كان يفاجأ بالحوادث التي لا ينتظر وقوعها ، وكان الذى يحمله على المغالاة في تقدير قواه ومواهبه هو جده وحرصه على الوصول إلى غرضه وتحمسه له ، كما حدث في الناصرة وأورشليم . بيد أن قواه كانت غير عادية ، ولعل الذى يثبت هذا هو معجزاته .

وأكبر الظن أن معظم هذه المعجزات كانت تحدث في أكثر الأحوال بقوة الإيماء — أى بتأثير روح قوية واثقة من نفسها ، في روح قابلة للتأثر . ولقد كان وجوده في حد ذاته يبعث القوة فيمن حوله ، فكانت لمسته المبشرة بالخير تشفى المريض وتقوى الضعيف ، وليست رواية أمثال هذه القصص عن غيره من الناس في الخرافات والتاريخ^(٥٩) دليلاً على أن معجزات المسيح هي الأخرى خرافات وأساطير ، فليس منها إلا عدد قليل ، لا يصدق العقل ، ويمكن مشاهدة أمثالها في كل يوم تقريباً في لوردس Lourdes ، وما من شك في أنها كانت تحدث أثناء حياة المسيح في إبيدوروس Epidaurus وغيرها من مراكز العلاج النفساني في العالم القديم ، وقد شفى الرسل أنفسهم حالات من هذا النوع . وهناك عاملان يدلان على أن هذه المعجزات ظاهرة نفسانية : أولهما أن المسيح نفسه كان يعزو شفاء المرضى على يديه إلى « إيمان » من يشفونهم ، وثانتهما عجزه عن القيام

بمعجزات في الناصرة ، لأن أهلها فيما يظهر كانوا ينظرون إليه على أنه « ابن النجار » ولا يؤمنون بقواه غير العادية ؛ من ثم كان قولهم إنه « ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته » (٦٠) . ويقال لنا عن مريم المجدلية إن « سبعة شياطين قد أخرجت منها ، أى أنها كانت تشكو آلاما ونوبات عصبية ، (ويذكرنا هذا باعتقاد البعض أن الشياطين تتقمص أجسام الناس) » ؛ والظاهر أن هذه الآلام والنوبات كانت تخفّ حدتها في حضرة عيسى ؛ ومن أجل هذا كانت تحبه لاعتقادها أنه أعاد إليها الحياة ، وأن قربه منها كان أمراً لا غنى عنه لسلامة عقلها . وأما ابنة بايروس فقد قال المسيح عنها في صراحة : إن البنت لم تمت بل كانت نائمة - ولعلها كانت مصابة بالشخص (*) . ولم يلبأ حين ناداها بأن تستيقظ إلى لهجته الرقيقة المعتادة بل قال بلهجة الأمر القوية : « طليثا قومي » (أى يا صبية قومي) (٦١) . ولسنا نقصد بهذا أن نقول إن عيسى كان يرى أن معجزاته ظواهر طبيعية محضة ؛ فقد كان يحس أنه لا يأتي بهذه المعجزات إلا بمعونة ما فيه من روح قدسية . ولسنا نعرف أنه كان مخطئاً في اعتقاده هذا ، كما أننا لا نستطيع حتى الآن أن ندرك حدود ما في تفكير الإنسان وإرادته من إمكانيات وقوى كامنة . ويبدو أن عيسى نفسه كان يحس بحدوث نفساني بعد أن يقوم بمعجزاته ، وأنه كان يحاولها وهو كاره ، وينهى أتباعه عن إذاعتها ، ويؤنب من يطلب إليه « علامة » ، ولقد ساءه أن أكبر الأسباب التي دعت الرسل أنفسهم إلى الإيمان به هو ما أتاه من أفعال « عجيبة » .

ويصعب علينا أن نقول إن أولئك الرسل كانوا من طراز الذين يُختارون ليبدلوا أقوال العالم . فالأنجيل تظهر ما بين أخلاقهم من اختلاف واقعي ، وتكشف عيوبهم كشفاً صريحاً ؛ فهم لا يخفون مظالمهم ، ولما أراد

(*) ويسمى أيضاً بالتخشب والجمود أو داء الثبوت وهو مرض عصبى يتميز بفقد الإرادة وتصلب العضلات سببه مرض الجهاز العصبى المركزى (شرف) .

عيسى أن يهدئ من هذه المطامع وعدهم بأنهم سيجلسون في يوم الحساب .
على اثني عشر كرسيًا يدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر (٦٢) . ولما أن
سجن المعمدان انضم أندرو أحد أتباعه إلى عيسى وجاء معه بأخيه سيمون
الذي سماه المسيح باسم كفاس ، أى « الصخرة » . وترجم اليونان اسمه إلى
بطرس . وبطرس هذا شخصية بشرية لحما ودما ، فهو متهور ، جاد ،
كريم ، غيور ، هياب يصل به الوجمل في بعض الأحيان إلى حد الحبس
الذى لا يسع الإنسان إلا أن يعفو عنه . وقد كان هو وأندرو يصيدان
السماك في بحيرة الجليل ، وكذلك كان ولدا زبدى Zebedee يعقوب
ويوحنا . وانتقل هؤلاء الأربعة بأعمالهم وأسره وأصبحوا دائرة ضيقة
حول المسيح . وكان متي جابيا في مدينة كفرناوم القائمة على الحدود ؛
أى أنه كان يقوم بعمل للدولة ، وإذن فقد كان في منصبه هذا يخدم
رومة ؛ لهذا كان مكروها من كل يهودى يتوق إلى الحرية . وكان يهوذا
الكريوتى وحده دون سائر الرسل الذى لم يأت من الجليل . وجمع الاثنا
عشر كلهم جميع ما يملكون وعهدوا إلى يهوذا أن يتولاها نائباً عنهم ؛
وكانوا في طوافهم مع المسيح في رحلاته التبشيرية يعيشون على ما يقدمه لهم
القرويون ، يأخذون طعامهم آنا بعد آن مما يمرون به من الحقل ،
ويقبلون ضيافة أصدقائهم ومن يهتدون بهديهم . وقد أضاف عيسى إلى
الاثني عشر اثنين وسبعين من الأتباع ، وبعث باثنين منهم إلى كل بلدة
يريد أن يزورها ، وقال لهم « لا تحملوا كيسا ، ولا مزوداً ،
ولا أحذية » (٦٣) . وانضمت بعض النساء الصالحات الرحيمات إلى أولئك
الرسل والأتباع وقدمن لهم المعونة ، وأدين لهم تلك الأعمال المنزلية التى
لا غنى عنها ، والتى هى أعظم سلوى لحياة الرجال . وعلى يد هذه الجماعة
الصغيرة الوضيعة غير المتعلمة أرسل المسيح إنجيله إلى العالم .

الفصل الرابع

الإنجيل

وكان يعلم الناس بالبساطة التي تتطلبها حال مستمعيه ، ويمزج هذه التعاليم بالقصص الطريفة التي تجعل دروسه تنفذ إلى الأذهان ، وبالحِكَم والأمثال القوية بدل الحجج العقلية ، وبالاستعارات ، والمجازات التي لا تقل روعة عن أمثالها في أى أدب من آداب العالم . وكانت طريقة القصص الرمزية التي يلجأ إليها مألوفة في بلاد الشرق ، وقد أخذ بعض تشبيهاته الرائعة ، ولعله أخذها دون علم منه ، عن أنبياء بنى إسرائيل ، وكتاب المزامير ، وأخبار اليهود^(٦٤) . بيد أن وضوح خطبه واتجاهها إلى هدفها مباشرة ، وروعة خياله وقوّته ، وإخلاصه العظيم ، قد رفعت أقواله إلى مستوى الشعر الملهم . ولسنا ننكر أن الغموض يكتنف بعض أقواله ، وأن بعضها يبدو لأول وهلة مما يتعجأى مع العدالة^(٦٥) ، وأن منها ما يشتمل على السخرية اللاذعة والحقد المرير ، ولكنها كلها تقريبا نماذج في الإيجاز والوضوح والقوة .

وكانت بداية تعاليمه هي لإنجيل يوحنا المعمدان ، وهذا الإنجيل نفسه يرجع إلى دانيال وأخنوخ ، إذ ليس في التاريخ طفرات . ومن أقواله أن ملكوت الله قد حان أجلها ، وأن الله سيقضى عما قريب على عهد الشر والخبائث ، وأن ابن الإنسان سيأتى « على سحُوب السماء » ليحاسب جميع البشر الأحياء منهم والأموات^(٦٦) . ومن أقواله إن الوقت الذي يجب أن يتوب فيه الإنسان من ذنوبه يمرّ مسرعا ، فأما من تاب وأناوب ، وسلك سبيل العدالة ، وأحب الله ، وآمن برسوله ، فإنه يرث ملكوت السموات ، ويسمو إلى القوة والمجد في عالم قد تحرر آخر الأمر من جميع الشرور والآلام والموت .

وكانت هذه الأفكار كلها مألوفة لسامعيه ، ولهذا فإن المسيح لم يحددها تحديداً واضحاً ، ومن ثم نشأت في وقتنا هذا صعاب جمة سببها ما في هذه الأفكار من غموض . ترى ماذا كان يعنى بملكوت السموات ؟ أهى سماء خيالية خارجة عن مألوف الطبيعة ؟ يخيل إلينا أنها لم تكن كذلك ، لأن الرسل والمسيحيين الأولين كانوا على بكرة أبيهم ينتظرون أن توجد مملكة أرضية ، وكانت هذه هى الرواية اليهودية التى ورثها عنهم المسيح ، ومن أجل هذا كان يعلم أتباعه أن يصلوا إلى الأب قائلين « ليأت ملكوتك » ، لتكون مشيئتكم كما فى السماء كذلك على الأرض .

ولم يُنطق إنجيل يوحنا المسيح بقوله إن « ملكتى ليست من هذا العالم » (٦٧) إلا بعد أن نخبها هذا الأمل . فهل كان يعنى بها حالة روحية أو طوبى مادية ؟ لقد كان يتحدث فى بعض الأحيان عن ملكوت الله بوصفها حالة من حالات الروح يصل إليها الأطهار المبروثون من الذنوب — « ملكوت الله داخلكم » (٦٩) ؛ وكان فى أحيان أخرى يصورها كأنها مجتمع سعيد فى مستقبل الأيام ، حكمه هم الرسل ، ويأخذ من أعطى أو أودى فى سبيل المسيح مائة ضعف (٧٠) . ويبدو أنه لم يكن يرى أن ملكوت الله هى الكمال الخلقى إلا مجازاً ، وأنه يرى أن هذا الكمال الخلقى إنما هو لإعداد لهذا الملكوت . وثمن يؤدى للحصول عليه ، وأنه هو الحال التى تكون عليها جميع الأرواح الناجية فى الملكوت إذا ما تحقق (٧١) .

ومتى يحين موعد هذا الملكوت ؟ قريباً . « الحق أقول لكم لا أشرب بعد من نتاج الكرمة إلى ذلك اليوم حينما أشربه جديداً فى ملكوت الله » . ومن أقواله لأتباعه : « لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان » (٧٣) . ثم أخره قليلاً فيما بعد : « إن من القيام ههنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً فى ملكوته » (٧٤) ؛ « لا يعصى هذا الجيل حتى يكون هذا

كله» (٧٥) . ومرّت به لحظات رأى فيها من حسن السياسة أن يحذر رسله بقوله : « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ، ولا الابن إلا الأب » (٧٦) . وستسبقه علامات : « وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب . . . تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ، وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن . . . يعثر كثيرون و . . . يبغض بعضهم بعضاً . ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ، ويضلون كثيرون ، ولكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين » (٧٧) . وفي بعض الساعات جعل يسوع مجيء ملكوت الله ينتظر استحالة الإنسان إلها عادلاً كما جعله موقوفاً على هذه الاستحالة ؛ وهو يجعل حلول الملكوت عادة عملاً من أعمال الله ، وعطية ومعجزة يفاجأ بها الناس من قبل العناية الربانية .

وقد فهم الكثيرون ملكوت الله بأنه طوبى شيوعية ، وحسبوا المسيح ثائراً اجتماعياً (٧٨) . وإنا لنرى في الأناجيل بعض الشواهد التي تؤيد هذا الرأى ، منها أن المسيح لا يخفى احتقاره للرجل الذى يجعل همه في الحياة جمع المال والانعماس في الترف (٧٩) ، فهو يتوعّد الفتى البطين بالجوع والشقاء ، ويواسى بالتطويات التي ضمن لهم بها ملكوت الله . ولما سأله شاب غنى عما يجب أن يفعله بعد أن حفظ الوصايا قال : « بع أملاكك ، وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء ، و... اتبعنى » (٨٠) . ويبدو أن الرسل كانوا يفسرون الملكوت بأنه انقلاب ثورى للعلاقات القائمة بين الأغنياء والفقراء ، وسوف نراهم هم والمسيحيين الأولين يوثفون جماعة شيوعية : « وجميع الذين آمنوا كانوا معاً ، وكان عندهم كل شيء مشتركاً » (٨١) . وكانت التهمة التي أدين من أجلها عيسى هي أنه كان يتآمر ليكون « ملك اليهود » .

ولكن في وسع الرجل المحافظ أن يجد في العهد الجديد شواهد يؤيد بها آراءه . منها أن المسيح قد اتخذ متّى صديقاً له ، ومتّى هو الذى ظل كما كان

عاملا من قبل الرومان ؛ ومنها أنه لم يطعن قط على الحكومة المدنية ، ولم يكن له فيما نعلم نصيب في الحركة اليهودية التي تهدف إلى الحركة القومية ، وأنه كان ينصح بالكنيسة البعيدة أشد البعد عن الثورة السياسية . وقد نصح الفريسيين بأن يعطوا « ما لقيصر لقيصر وما لله لله »^(٨٢) . ولسنا نجد في قصة الرجل الذي « دعا عبده » قبل سفره « وسلمهم أمواله »^(٨٣) أية شكوى من الربا أو الاسترقاق ، بل لأنها تسلم بهاتين السفتين بوصفهما من الأمور التي لا تقبل الجدل . ويبدو أن المسيح يقر ما فعله العبد الذي استثمر العشر الميقات (٦٠٠ ريال أمريكي) التي عهد بها إليه سيده ، فصارت عشرين ؛ وأنه لا يقر عمل العبد الذي تركت له منها واحدة فحبسها ولم يستثمرها حتى يعود سيده من غيبته ، ويُنتطق هذا السيد بتلك العبارة القاسية : « إن كل من له يُعطى ، ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه »^(٨٤) ، وهى خير ما تلخص به أعمال السوق التجارية ، إن لم نقل إنها خير خلاصة لتاريخ العالم . وفي قصة رمزية أخرى نرى العمال غاضبين على صاحب العمل الذى يؤجر من عمل ساعة بقدر ما يؤجر الذين ظلوا يكدحون طول اليوم ؛ فينتطق المسيح صاحب العمل بقوله : « أو ما يحل لى أن أفعل ما أريد بمالى ؟ »^(٨٥) . ويبدو أن المسيح لم يفكر فى القضاء على الفقر ، لأن الفقراء دائما معه . فهو كالأقدمين جميعا يرى أن من الأمور المسلم بها أنه يجب على العبد أن يخدم سيده على خير وجه : « طوبى لذلك العبد الذى إذا جاءه سيده يجده يفعل هكذا »^(٨٦) أى ما كلفه به . وهو لا يرى من شأنه أن يهاجم النظم الاقتصادية أو السياسية القائمة فى وقته ، بل يفعل عكس هذا فيهاجم ذوى النفوس النائرة المتحمسة الذين يغتصبون ملكوت السموات^(٨٧) . أما الثورة التي كان يفكر فيها فكانت أعمق من هذه الثورة وأبعد منها أثرا ، فهى ثورة إذا لم تحدث كانت كل الإصلاحات سطحية سريعة الزوال . فإذا استطاع أن يظهر قلوب الناس من الشهوات الأنانية ، ومن القسوة ، والفجور ، فإن الطوبى

تحل ، ولا يبقى أثر لتلك النظم التي تنشأ من شره الإنسان وعنفه ، وما تستتبعه من الحاجة إلى القوانين . وهذا إذا تم كان أعمق الثورات ، التي إذا قيست إليها الثورات جميعها كانت تغيراً موقوتاً يضع طبقة مكان طبقة ، وتظل الطبقة الغالبة تستغل الناس كما كانت تستغلهم الطبقة المغلوبة . وبهذا المعنى كان المسيح أعظم الثائرين ، أى محدثى الانقلابات فى تاريخ العالم .

وليس أهم أعماله أنه يبشر بدوله جديدة ، بل أهمها أنه يضع الخطوط الرئيسية لمبادئ أخلاقية مثالية . وكانت تلك المبادئ الأخلاقية هى التى تنبأ بقيامها عند ما يحل موعد ملكوت الله^(٨٨) ، والتى كان يقصد بها أن يكون الناس خليقين بالدخول فى هذا الملكوت . ومن ثم كانت تلك « التطويات » وما فيها من تمجيد للوداعة ، والفقر والرقعة ، والسلام لم يسبق له مثيل ، وكانت نصيحته أن يدير الإنسان خده الثانى ، وأن يكون الناس كصغار الأطفال (لأمثلا عليا للفضيلة !) ، وكان عدم اهتمامه بالشئون الاقتصادية ، وبالفقر ، وبشئون الحكم ، وتفضيله العزوبة على الزواج ، وأمره الناس بأن يتخلوا عن جميع الروابط العائلية لم تكن هذه قواعد للحياة العادية ، بل كانت نظاما يكاد يماثل نظام الأديرة يهين الرجال والنساء لأن يختارهم الله لملكة مرتقبة ، لن تكون فيها شريعة ، ولا زواج ، ولا علاقات جنسية ، ولا فقر ، ولا حرب . وقد أثنى يسوع على الذين تركوا « بيتاً ، أو والدين ، أو إخوة ، أو امرأة ، وأولاداً » بل أثنى أيضاً على الذين « خضوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات »^(٨٩) . وما من شك فى أن هذه التعاليم قد وضعت لتسير عليها أقلية دينية ورعة ، ولم توضع لمجتمع دائم . لقد كانت هذه مبادئ أخلاقية ، ضيقة فى أغراضها ، ولكنها عامة فى مجالها ، لأنها تطبق فكرة الأخوة والقاعدة الذهبية على الأجانب والأعداء كما تطبقها على البحيران والأصدقاء . وكانت تتطلع إلى زمن لا يعبد فيه الناس الله فى الهياكل ، بل يعبدونه « بالروح ، والصدق » وبكل عمل يعملونه لا بالألفاظ الزائلة .

ترى هل كانت هذه المبادئ الأخلاقية جديدة ؟ ليس ثمة شيء جديد إلا الترتيب ، وإن الفكرة الرئيسية التي تدور حولها عظات المسيح — فكرة يوم الحساب وملكوت الله — لى من الأفكار التي وجدت عند اليهود قبل ذلك الوقت بمائة عام . ولقد نادى الشريعة بأخوة البشر قبل ذلك بزمن طويل . فقد جاء فى سفر اللاويين : « تحب قريبك كنفسك » و« كالوطنى منكم يكون لكم الغرب النازل عندكم وتحبه كنفسك » (٩٠) . وكان اليهود قد أمروا فى سفر الخروج أن يحسنوا لأعدائهم (٩١) ، وكان إرميا (٩٢) وإشعيا (٩٣) ، قد أشارا عليهم أن يديروا خدوم لمن يظلمهم . وكان الأنبياء أيضا قد جعلوا الحياة الصالحة أعلى درجة من العداوة أيا كان نوعها ، وكان إشعيا (٩٤) وهوشع (٩٥) ، قد شرعا ببدلان يهوه من رب الجنود إلى إله الحب ، وكان هال قد صاغ القاعدة الذهبية كما صاغها كنفوشيوس ؛ وليس من حقنا أن نأخذ على يسوع أنه ورث المبادئ الأخلاقية التي كانت سائدة بين شعبه ، وأفاد من تلك المبادئ .

وقد ظل المسيح زمنا طويلا لا يرى فى نفسه إلا أنه أحد اليهود ، يؤمن بأفكار الأنبياء ، ويواصل عملهم ، ويجرى على سنتهم ، فلا بخطب إلا فى اليهود . ولما أرسل أتباعه لينشروا إنجيله لم يرسلهم إلا لمدن اليهود : « إلى طريق أرم لا تمضوا ، وإلى مدينة السامرين لا تدخلوا » (٩٦) ؛ ومن ثم كان تردد الرسل بعد موته فى أن يحملوا « الأنبياء الطيبة » إلى عالم « الكفرة » (٩٧) ولما التقى بالسامرية عند البئر قال لها إن « الخلاص هو من اليهود » (٩٨) ، وإن لم يكن من حقنا أن نحكم عليه من أقوال لعلها قد تقوها عليه لإنسان لم يكن حاضرا معه ، أو كتبها بعد ستين عاما من الحادثة التي قيلت فيها . ولما طلبت إليه امرأة كنعانية أن يشفى ابنها أبى فى أول الأمر وقال : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » (٩٩) . وقال للأبرص الذى شفاه من عاته « اذهب وأر نفسك للكاهن وقدم القربان الذى أمر به موسى » (١٠٠) : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون ،

فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، لكن حسب أعمالهم لا تعملوا» (١٠١) ، ولما عرض يسوع أن تعدل الشريعة اليهودية ، سار على سنة هلل فلم يفكر في أنه ينقض هذه الشريعة : لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل» (١٠٢) «ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس» (١٠٣)(*) .

لكنه مع هذا قد بدل كل شيء بقوة أخلاقه وشعوره . فقد أضاف إلى الشريعة اليهودية أمره إلى الناس بأن يستعدوا للدخول في الملكوت بأن يحيوا حياة العدالة ، والرأفة والبساطة . وزاد الشريعة صرامة في مسائل الجنس والطلاق (١٠٥) ، ولكنه خففها بأن كان أكثر استعدادا للعفو (١٠٦) ، وذكر الفريسيين أن السبت قد وضع لخير الإنسان (١٠٧) ، وخفف الشروط الموضوعية على الطعام والطهارة ، وحذف بعض أوقات الصوم ، وأعاد الدين من المراسم والطقوس إلى الصلاح والاستقامة ، وندد بالجهل بالصلوات ، والتظاهر بالصدقات ، والاحتفالات الفخمة بالحنازات ، وترك الناس أحيانا يظنون أن الشريعة اليهودية سوف تمحى حين تحل الملكوت (١٠٨) .

وقد قاوم اليهود على اختلاف شيعهم هذه الإصلاحات عدا الإسمينيين ، وكان الذي أغضبهم بنوع خاص ما ادعاه لنفسه من حق العفو عن الخطايا والتحدث باسم الإله . وقد هالهم أن يروه يختلط بعمال رومة المبغضين ، وبالنساء ذوات السمعة السيئة . وكان كهنة الهيكل وأعضاء السهلمدين يرقبون نشاطه بعين الريبة ، ويرون في هذا النشاط ما كان يراه هيرودس في نشاط يوحنا وهو أنه ستار يخفي تحته ثورة سياسية ، وكانوا يخشون أن يتهمهم الحاكم الروماني بأنهم يتحلبون مما هو مفروض عليهم من تبعات ليحافظوا بذلك على النظام الاجتماعي .

(*) ربما كانت هذه الفقرات مما تقوله عليه المسيحيون المتهودون الذين أرادوا أن يحطوا من شأن بطرس (١٠٤) ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بهذا إذ ينقصنا الدليل .

وقد أوجسوا في نفوسهم خيفة من وعد المسيح بتدمير الهيكل ، ولم يكونوا واثقين من أن هذا التدمير إنما هو تدمير مجازى لا يقصد به حرفيته . أما المسيح نفسه فقد ندد بهم تنديداً شديداً .

« الكتبة والفريسيون . . . يحزمون أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس ، وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم . وكل أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم الناس ، فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم ، ويحبون المتكأ الأول في الولائم والمجالس الأولى في المجامع . . . لكن ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون . . . أيها القادة العميان . . . أيها الجهال والعميان ! : تركتم أثقل الثاموس - الحق والرحمة والإيمان . . . تنقون خارج الكأس والصحفة ، وهما من داخل مملوءان اختطافاً ودعارة . . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة ! . . . تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء ونفاقاً . . . لأنكم أبناء قتلة الأنبياء ، فاملاؤا أنتم مكياً آبائكم ! أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ : : : إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله » (١٠٩) هـ

ترى هل كان يوحنا عادلاً في حكمه على الفريسيين ؟ أكبر الظن أنه كان من بينهم من يستحقون هذا التقرع ، وأن منهم كثيرين كانوا يفعلون ما فعله المسيحيون بعد بضعة قرون من ذلك الوقت فيستبدلون بطهارة النفس مظاهر التقى الخارجية : غير أنه كان من بين الفريسيين كثيرون يرون أن الشريعة يجب أن تخفف وأن تكون أكثر إنسانية مما هي (١١٠) . ولعل عدداً كبيراً من هذه الطائفة كانوا رجالاً مخلصين ، وأشرافاً ظرفاء إلى حد كبير ، يشعرون بأن القواعد الشكلية التي أغفلها يسوع يجب ألا يحكم عليها مستقلة عن غيرها من القواعد ، بل يجب أن تؤخذ على أنها جزء من الشرائع التي ساعدت على جميع كلمة اليهود ، وبعثت فيهم العزة والأدب وسط عالم ييغضهم ويعاديهم : وكان بعض

الفريسيين يعطفون على عيسى ، وقد جاءوه ليحذروه من المؤامرات التي كانت تدبر لاغتياله (١١١) ، ولقد كان نقوميديس Nicomedus أحد المدافعين عنه من أغنياء الفريسيين .

وحلت القطيعة الأخيرة بين عيسى وبينهم حين بدأ يعتقد أنه هو المسيح المنتظر ، ويعلن هذا في صراحة ووضوح . لقد كان أتباعه ينظرون إليه في أول الأمر على أنه خليفة يوحنا المعمدان ، ثم أخذوا يعتقدون شيئاً فشيئاً أنه هو المنقذ الذي سيرفع نير الرومان عن إسرائيل ، ويبسط حكم الله على الأرض . ولما أن سألوه « قائلين يارب هل في هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل ؟ » (١١٢) لم يجبه إلا بقوله « ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الرب في سلطانه » وأجاب جواباً شبيهاً بهذا الجواب في غموضه حين سأله رسل من عند المعمدان هل هو المسيح المنتظر ؟ وأراد أن يخرج من عقول أتباعه فكرة أنه مسيح سياسي فأنكر كل ادعاء بأنه من نسل داود (١١٣) . لكن يلوح أن ترقب أتباعه وآمالهم القوية ، وما تبينه من قواه النفسية غير العادية قد أفتعاه تدريجاً بأنه رسول من عند الله جاء ليعد الناس لحكم الله في الأرض لاليعيد سيادة اليهودية ، ولم يقل (في الأناجيل الثلاثة المتشابهة - متى ، ومرقس ، ولوقا) لأنه هو والأب إله واحد أويسوى نفسه به ، فقد سأل أتباعه : « لماذا تدعوني صالحاً ؟ ليس أحداً صالحاً إلا واحد وهو الله » (١١٤) وقال وهو يصلي في جتسماني : « ليكن لا ما أريد أنا ، بل ما تريد أنت » (١١٥) . وقد أخذ لفظ « ابن الإنسان » الذي جعله دانيال مرادفاً للفظ المسيح ، واستعمله في بادئ الأمر دون أن يقصد به نفسه في وضوح ثم انتهى آخر الأمر بإطلاق هذا اللفظ على نفسه في مثل قوله : « فلأن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً » (١١٦) - وهي عبارة رآها الفريسيون تجديفاً في حق الله . وكان يدعو الله باسم « الأب » دون أن يقصد بهذا في بعض الأحيان أباه هو نفسه ، بيد أنه أحياناً أخرى يقول : « أبي » . ويبدو أنه يقصد بهذا

أنه ابن الله بصفة أو درجة خاصة (١١٨) . وقد ظل وقتاً طويلاً ينهى أتباعه عن أن يسموه المسيح ، ولكنه في قيصرية فلبس رضى بقول بطرس إنه « المسيح ابن الله الحى » (١١٩) . ولما اقترب من أورشليم فى آخر يوم اثنين قبل وفاته ليوجه آخر دعوة إلى الناس ، حياه « جمهور التلاميذ » « قائلين مبارك الملك الآتى باسم الرب » ، ولما طلب إليه بعض الفريسيين أن ينتهر تلاميذه من أجل هذه التحية رد عليهم بقوله : « لأنه لو سكنت هؤلاء فالحجارة تصرخ » (١٢٠) . وقد جاء فى الإنجيل الرابع أن الجماهير حيته بقولها إنه « ملك إسرائيل » (١٢١) . ويبدو أن أتباعه كانوا لا يزالون يعتقدون أنه مسيح سياسى سيقضى على سلطان الرومان ويجعل الكلمة العليا لليهودية . وكانت هذه الأصوات والتحيات هى التى قضت على المسيح بأن يموت ميتة الثوار .

الفصل الخامس

الموت والتجلى

اقرب عيد الفصح واجتمع في اورشليم عدد كبير من اليهود ليقربوا القرايين للهيكل . وكان البهو الخارجى يضج بأصوات البائعين ينادون على اللحم وغيره من حيوانات الضحايا ؛ والصيارفة يعرضون النقود المتداولة في هذا المكان بدل نقود الوثنيين المتداولة في الإمبراطورية الرومانية . ولما زار عيسى الهيكل في اليوم الثانى بعد دخوله المدينة هاله بما كان تحت المظلات من ضجيج وأعمال تجارية فانتابته هو وأتباعه نوبة من الغضب الشديد ، دفعتهم إلى قلب مناضد الصيارفة وتجار اللحم ، وبعثرة نقودهم على الأرض ، وإخراج التجار من ساحته بضرب العصي . وظل عدة أيام بعد مجيئه يعلم في الهيكل دون أن يتعرض له أحد (١٢٢) . ولكنه كان يخرج منه ليلاً ويبعث في جبل الزيتون لخوفه أن يُقبض عليه أو يُغتال .

وكان عمال الحكومة - المدينون منهم والدينيون ، الرومان واليهود - يراقبونه ، وأكبر الظن أن هذه المراقبة قد بدأت من يوم أن خلف يوحنا المعمدان في دعوته . وكان عجزه عن أن يضم إليه عدداً كبيراً من الأتباع مما جعلهم يهملون أمره ، ولكن يبدو أن الاستقبال الحماسى الذى استقبل به في اورشليم حير زعماء اليهود فصاروا يخشون أن تلتهب حماسة هذه الجماعات التى اجتمعت في عيد فصح ، فتدفعها عواطفها الثائرة ونزعها الوطنية إلى الثورة على السلطة الرومانية ثورة طائشة عقيمة لم يحن موعدها بعد ، فتكون عاقبتها القضاء على كل ما تبستمتع به اليهودية من حكم ذاتى وحرية دينية . ومن أجل هذا دُعا الحاخام الأكبر السنهدرين إلى الاجتماع ،

وقال له : « إنه خير لنا أن يموت لإنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها » (١٢٣) ووافقته أغلبية الحاضرين على رأيه وأمر المجلس بإلقاء القبض على المسيح .

وببدو أن نبأ هذا القرار وصل إلى مسامع يسوع ، ولعل الذى أوصله إليه بعض أعضاء فى السمنهدين نفسه . فى اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبرى (وهو اليوم الثالث من شهر إبريل) من العام الثلاثين فى أرجح الأقوال (*) أكل عيسى ورسله عشاء عيد الفصح فى دار صديق له فى أورشليم ، وكانوا ينتظرون أن ينجى المعلم نفسه بما له من معجزات ؛ لكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، ورضى بما قدّر له ؛ ولعله كان يأمل أن يتقبل الله موته عل أنه تضحية يكفّر بها عن ذنوب شعبه (١٢٤) . وقد قيل له إن أحد الاثنى عشر كان يأتمر به ليسلمه إلى أعدائه ؛ وفى هذا العشاء الأخير اتهم المسيح علناً يهوذا الإسخريوطى (**). وقد جرى يسوع على السنن اليهودية فبارك الخمر الذى قدمه للرسل ايشربوه ، ثم غنوا جميعاً أغنية هاليل اليهودية (١٢٧) . ويقول يوحنا إنه قال لهم « يا أولادى أنا معكم زماناً قليلاً بعد ... وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً ... لانضطرب قلوبكم . أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بى . فى بيت أبى منازل كثيرة ... أنا أمضى لأعدّ لكم مكاناً » (١٢٨) .

ويبدو أن من المعقول جداً أن يطلب المسيح إليهم فى هذه الساعة الرهيبة أن يكرروا هذا العشاء فى مواسم خاصة (كما تتطلب ذلك عادة اليهود) ، لإحياء لذكره ؛ وليس ببعيد أنه ، وهو ذو الإحساس الشرقى المرفه والخيال الشرقى

(*) ولقد طال الجدل حول الزمن الذى امتدت إليه رسالة المسيح ، والسنة التى مات فيها . ولقد رأينا أن لوقا يحدد تعميد المسيح بعام ٢٨ - ٢٩ . أما تاريخ بولس ، الذى يعتمد فيه على ما قاله هو نفسه فى رسالته إلى أهل غلاطية الإصحاح الأول والثانى ، وتواريخ الحكام الرومان الذين تولوا محاكمته ، والرواية المأثورة التى تقول إن موته كان عام ٦٤ ، كل هذا يتطلب أن يكون اعتناق بولس لدين المسيح فى عام ٣١ . انظر الفصل السابع والعشرين . (***) لقد قيلت حجج كثيرة فى تنفيذ قصة يهوذا (١٢٥) ، ولكنها حجج لا يقتنع بها العقل (١٢٦) .